المعرفة عند الإمام ابن تيمية .

لقد بلغ ابن تيمية في المحبة الإلهية منزلة من الفهم والعمق لا تقل شأنا ولا مقدارا عن الصوفي الأصيل الذي عبر عن وجده وشطحاته بعبارات ، غامضة غريبة عمّن لم يتذوق مباعث جذبه وهيامه ، بل لقد تخطى ابن تيمية ما في حياة الصوفي من ذلات فكانت روحه أكثر ضياءاً وبهجة وإشراقا لأنه بنى منهجه من خلال إشراقات القرآن الكريم الذي ظلت له القلوب خاشعة فنراه يقول (وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله وعظمته ، وجماله أمورا عظيمة تصادف قلوبا رقيقة ، فتحدث غشيا وإغماء ، ومنها ما يوجب الموت ومنها ما يخل العقل "[1]وقد كان اعتماده في نظرته للتصوف قائمة على ما تشربه من الكتاب والسنة فنراه يقدم البراهين على صحة ما يراه " فأحسن الحديث وأصدقه كتاب الله : خبره أصدق الخبر وبيانه أوضح البيان وأمره أحكم الأمر "[2] مصداقا لقوله تعالى" فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ "[3] أما عن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم – فما لأحد أن يتقدم برأي ولا قول على قوله ورأيه وعلمه صلى الله عليه وسلم . (ولا يستجيز أحد أن يسلط عليها التأويلات العقلية ، ويدعى أن ذلك من كمال الدين وأن الدين لا يكون كاملا إلا بذلك) [4]

ولقد شغلت هذه المسألة – أعنى المعرفة – كثيرا من المفكرين والمتكلمين والفلاسفة والصوفية وغيرهم من المسلمين

---

(١) ابن تيمية – كتاب التصوف ،صـ٧٥ ج١٠ من الفتاوى الكبرى .

(٢) ابن تيمية – نقض المنطق صـ ٧٢ .

(٣) سورة الجاثية (٦)

(٤) السابق صـ٧٦ .

وكذلك غير المسلمين من القدامى والمحدثين ، وممن أدلى بدلوه في هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية والحقيقة أن محبة الأشياء أو بغضها لابد وأن يسبق بالعلم والمعرفة ، فمن لم يعلم الشيء لن تجد له حبا أو بغضا فإن الإدراك سابق على الحب ، فإذا لم يكن هناك شعور بالشيء فلا يتصور له حب ولا بغض فيؤسس ابن تيمية على ذلك رأيه أن (المعرفة هي أساس مع المحبة – وكذلك – الإنكار إحساس مع بغضه)[1] ولذا فإن الله تعالى قد أفاض على عباده بأن عرفهم نفسه بالميثاق الأول في عالم الذر ، ثم لما لم تقم به كل الأنفس حتي تتم لها المعرفة ، ولم يقم العبد بموجبه بمراد الخالق ، كانت العناية الإلهية ، والعدل السماوي ، بإرسال رسله للإقرار الأول مفصلين به ومذكرين .

وهذا هو السبب الأعظم في إنزال القرآن الكريم الذي جمع علوم الأنفس والأكوان وصدق الله تعالى " مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ "[2] أي ما للشركة أي شيء إلا وكتبنا عنه وبيناه "[3] وتأثير القرآن لا ينكر خاصة (وأن القرآن الكريم هو العامل الأكبر في نشأة البحث العلمي والفلسفي بمعناه الصحيح عند المسلمين بوجه عام)[4]

---

(١) ابن تيمية – مسألة فيما إذا كان في العبد محبة لما هو خير وحق محمود في نفسه / تحقيق د/ محمد رشاد سالم – ضمن دراسات عربية وإسلامية المهداة إلى الشيخ محمود محمد شاكر – مطبعة المدني القاهرة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٢ م صـ ٤٤٩ .

(٢) سورة الأنعام (٣٨).

(٣) تفسير الإمامين الجليلين –(السيوطى والمحلى) ط دار الفكر بدون تاريخ صـ ١٧٤ .

(٤) د/ سامى نصر لطفي (نماذج من الحكمة الدينية) ج١ ، ط٢ ، صـ ٣٩ .

وللمعرفة معانٍ في اللغة وفي الاصطلاح وفي القرآن الكريم

أولا : المعرفة في اللغة .

المعرفة في اللغة مصدر يرادف العلم والفهم (إذ إن العرفان يعنى العلم) [١] وعرفه يعرفه (معرفة وعرفانا بمعنى : علمه) [٢] وعرفته : (أي علمته بحاسة من الحواس الخمس) [٣] وإذا كان العلم نقيضه الجهل فإن المقصود من علمت الشيء : (أي عرفت علامته وما يميزه) [٤] والذي عليه أهل العلم أن المعرفة أخص من العلم لأنها علم يقين الشيء مفصلا عما سواه والعلم يكون مجملا ومفصلا ولذا فلا يجوز أن يقال فلان يعلم الله بل يقال يعرف فالمعرفة على قدر العارف أما العلم فعلى قدر المعلوم ، ولذا أيضا فإنه يقال إن معرفة البشر لله تعالى تكون عن طريق تدبر آثارة دون إدراك ذاته ، وقد وصف الله تعالى بالعلم لا بالمعرفة إذ (أن من شرط العلم أن يكون محيطا بأحوال المعلوم إحاطة تامة) [٥] وبذلك فالمعرفة أخص من العلم ، وكل علم معرفة وليست كل معرفة علما والمعرفة ضدها الإنكار أما (العلم فضده الجهل) [٦]

---

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٥ صـ ٣٥٦٧ دار المعارف (الرازي – مختار الصحاح صـ ٥٢٦

(٢) الزبيدى ـ تاج العروس ج٦ صـ١٩٢

(٣) المقرى / المصباح المنير ـج١٢ صـ٤٠٤ مادة عرف .

(٤) مجمع اللغة العربية / معجم ألفاظ القرآن الكريم ج٢ ، ط٢ صـ٢٧٦

(٥) أبو هلال العسكرى – الفوارق في اللغة صـ٧٣

(٦) التهانوى / كشاف اصطلاحات الفنون صـ٣٦٢ .

ثانيا : المعرفة اصطلاحا :

وهي في الاصطلاح تعني -إدراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم،(ولذلك يسمى الله تعالى بالعالم دون العارف) [1] أما عن ماهية العلم فيما اصطلح عليه (فهو المعرفة وإدراك الشيء على ما هو عليه ، وضده الجهل) [2] والعلم :

ضربان : أحدهما: إدراك ذات الشيء ، **والثاني :** الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له ، أو نفي شيء هو منفي عنه ، فالأول هو : المتعدي إلي مفعول به واحد مثل قوله تعالى " لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ "[3] والثاني المتعدي إلي مفعولين مثل قوله " فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ "[4] والعلم من ناحية أخرى قسمان : (نظري وعملي) أما النظري ما إذا علم فقد كمل نحو العلـم بموجودات العالم ، والعملي ما لا يتم إلا بأن يعمل كالعلم بالعبادات .

ثالثا : المعرفة في القرآن الكريم :

يكاد اللفظان يتقاربان في المعنى ولكنه برغم هذا التقارب بين لفظي " المعرفة " و " العلم " في القرآن الكريم إلا أن لهما استخدامهما المتميز ، فلفظ " العلم " ورد في القرآن الكريم في صيغ وصور كثيرة : في صورة الفعل

---

[1]) الجرجاني (التعريفات صـ ٨٢ ، المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية صـ ١٢٣ ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا جـ١ ، طـ١ ١٩٧٣ ، صـ٩٩ .

[2] محمد إسماعيل إبراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية صـ٧١ ، (الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن صـ٣٤٣ .

[3] سورة الأنفال (٦٠)

[4] سورة الممتحنة (١٠)

الماضي ، وفعل الأمر والمضارع ، واسم المفعول ، واسم الفاعل ، واسم التفضيل ، وصيغ المبالغة ، حيث تكرر لفظ العلم ومشتقاته في القرآن الكريم حوالي (٧٦٥) مرة [١] أما لفظ " المعرفة " بحرفه فلم يذكر في القرآن الكريم ، وإنما تعددت مشتقاته الدالة عليه ولذلك نسب الله تعالى لنفسه لفظ العلم ، وكانت صيغة المبالغة " عليم " أو " علام " في القرآن الكريم (منسوبة إلي الله وحده) [٢] ولفظ المعرفة في القرآن الكريم يختص به الإنسان وحده ويوصف به وفي الأحاديث النبوية أيضا يكاد لفظ " علم " و " عرف " يتقاربان في المعنى تماما إن لم يكن معناهما واحدا ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه "[٣] وقال صلى الله عليه وسلم : القضاة ثلاثة : واحد في الجنة ، واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهالة فهو في النار [٤] فالعلم والمعرفة هنا بمعنى واحد .

مصادر المعرفة عند ابن تيمية [٥].

إذا سلمنا ضرورة بأن المعرفة هي الوصول إلي الحق فإن المعرفة لزاما تتبنى على مصادرها ومنابعها ، فإذا صحت صحت المعرفة ، وإذا فسدت فسدت المعرفة .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم صـ٤٦٩ : ٤٨٠ طبقة دار الحديث القاهرة ط١ ١٩٩٦ م / ١٤١٧ هـ

(٢) د/ جمال جمعه – المعرفة عند ابن تيمية صـ٧١ رسالة ماجستير – إشراف أ.د/ فوقية حسين ١٩٨٩م .

(٣) البخارى – ج ٨ ص ٦٥ باب السلام ، وأبو داود السنن ط ١ ج ٤ ص ٦٦ .

(٤) أبو داود السنن ج ٤ ص ٥ .

(٥) عبد الرحمن النحلاوي – ابن تيمية صـ٤٨ دار الفكر – دمشق ط١ ١٩٨٦ م .

المصدر الأول : الوحي الإلهي المنزل (ما جاءت به الرسل عن الله تعالى) :

يعتبر هذا المصدر عند ابن تيمية هو أهم المصادر وهو المقياس لكل المصادر الأخرى ، فكل ما وافقه ولم يخالفه فهو صحيح ، وكل ما خالفه ولم يوافقه فهو باطل ، لا سيما إذا كانت المعرفة تتعلق بالمغيبات أو بأمور الفرائض والعبادات والمعاملات والفقهيات يقول ابن تيمية (إن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم) [1] ويرى أن الأمور الكلامية العلمية يحتج بها إن كان خبرها كله موافقا لما جاءت به الرسل عن الله تعالى فإنه (الصواب الموافق للسنة والشريعة ، وما لم يكن كذلك كان من الباطل والبدع المضلة ، والجهل ، وإن كان يسميه من يسميه علوماً ومعقولات ، وعبادات ومجاهدات وأذواقا ومقامات) [2] وهو يرى كذلك (أن أنباء الغيب قد ضل فيها عامة من دخل فيها بمجرد رأيه في عدم الاستهداء بهدى الله والاستضاءة بنور الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه) [3].

وابن تيمية يجعل هذا المصدر مصدرا شموليا ومقياسا لكل فروع الدين ولكل المعارف الأخرى من أصول الدين وبراهينه وأدلته العقلية ،

---

(1) ابن تيمية – الفتاوى ص ١٩/ ٩٥

(2) ابن تيمية ــ الاستقامة ،ج٢/ ٢٩٩

(3) ابن تيمية ــ درر تعارض العقل والنقل ، ج١ ، صـــ ١٥٥ .

فأثبت في رسائله الكبرى فصلا أثبت فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين : أصوله وفروعه ، باطنه وظاهره ، علمه وعمله) [1].

ولم يتوقف قبول ابن تيمية لما جاء به الرسول فقط بل إلى ما جاءت به الرسل جميعا وثبت عنهم بطريق شرعي فإن (كل ما نقل عن الأنبياء إنما يقبل منهم وما سوى ذلك فموقوف على الحجة ، إن كان حقا قبل وإلا رد) [2]

ويرى ابن تيمية أن الكتاب والسنة جميعا وافيان بجميع أصول الدين وفروعه ولم يدلا فقط بطريق الخبر الصادق كما يظن ذلك بعض من أهل الكلام والفلسفة والحديث والتصوف بل إن الكتاب والسنة قد دلا الخلق وهدياهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين (كالأمثال المضروبة في القرآن الكريم فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل) [3]

وأما العمليات – فقد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم – أحسن بيان ، فما من شيء مما (أمر الله أو نهي عنه أو حلله أو حرمه إلا بين ذلك) [4] قال تعالى " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ "[5] وقال تعالى " مَا كَانَ

---

[1] ابن تيمية – مجموع الرسائل الكبرى ١٨٠/١ – رسالة معارج الوصول ط – المطبعة الشرقية ١٣٢٤ هـ .

[2] ابن تيمية – معارج الوصول صـ١٨٩ فمن مجموعة رسائل يعنى بتصحيحها السيد محمد بدر الدين الحلبي – القاهرة المطبعة الحسية سنة ١٣٢٣ هـ

[3] ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ، صـ ٨٠ ، راجعه وفهرسه وقدم له ـ أحمد حمدي إمام ـ مطبعة المدني ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

[4] ابن تيمية – الرسائل الكبرى ١٩٤/١ مطبعة المدنى سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١ م

[5] سورة المائدة (٣)

حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (١)

ويرى ابن تيمية أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد بينا جميع أصول الدين وفروعه لجميع الخلق وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا كل الحرص على تعليم الأمة الكتاب والحكمة – فآيات الله هي القرآن وحكمته هي السنة – كما قد قال به غير واحد من السلف قال تعالى آمراً نساء رسوله بالاتباع " وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ "(٢).

والخلاصة التي تفهم من خلال عرض ابن تيمية لهذا المصدر المعرفي الذي استفاده من استقرائه للكتاب والسنة وفهمه لهما أن كل حكم ورد صريحا في النصوص الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الواضح في القرآن الكريم (ولا يمكن أن يخالف قياساً صحيحاً ، ولا استدلالاً عقلياً سليماً ولا فطرة سليمة ، ولا إلهاماً صدر عن صفاء وتقوى من الله ، وكل مخالف للنص الصحيح من هذه الأمور فهو خاطئ أو فاسد ربما خفي فساده على بعض الناس) (٣)

ثانياً :الفطرة

وهذا النوع من المعرفة لابد فيه للعبد من الفيض أو الوهب الإلهي وقد تمت هذه المعرفة ، وتتم في عالم الورو في الأضلاب ويرى ابن تيمية أن معرفة الله والإقرار بعبوديته سبحانه أمر فطرى في جبلات الناس جميعاً ولكن أكثر الناس قد غفلوا عما فطروا عليه من العلم بذلك ونعنى بالفطرة

---

(١) سورة يوسف (١١١)

(٢) سورة الأحزاب (٣٤)

(٣) عبد الرحمن النحلاوى – ابن تيمية صـ٦٣ .

عند ابن تيمية كمصدر للمعرفة (القوة الغريزية التي تعين على معرفة الحـق وعلى محبته ، والتي فطـر الله كل مولود عليها) [١]

ولهذا جاءت الرسل – عليهم الصلاة والسلام – تذكرهم بذلك كما قال تعالى " جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ " [٢] ولابن تيمية رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالي ، قال تعالى " بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ "[٣]

.وهذا إخبار عما فطروا عليه من الإقرار بمعرفة ربهم ، قال تعالى " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " [٤]

(فإن هذه الآية بينة في إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التي فطروا عليها بأن الله ربهم وذلك عندما أخذ الله علينا الميثاق) [٥] وهذه الآيات تتضمن أمرين يمثلان الجذور المعرفية الأولى وهما :

١ــ أن كل مولود يولد على الفطرة (فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة بالإلهية ، محبة له تعبده لا تشرك به شيئا) [٦]

قال صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) [١]

---

(١) ابن تيمية – جامع الرسائل صـــ٢٤٣

(٢) إبراهيم (٩)

(٣) البقرة (١١٦)

(٤) الأعراف (١٧٢)

(٥) جامع الرسائل صـــ ١١ بتصرف .

(٦) الفتاوى ١٤ / ٢٩٦ جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاجمى وساعده ابنه محمد طبع على نفقة جلالة الملك سعود بن عبد العزيز – ط١، ١٨٣٢ .

٢ــ الهداية العامة بما غرس الله تعالى في فطرهم وقلوبهم من المعرفة وأسباب العلم قال تعالى " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ "[٢] وقال تعالى " الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ " [٣] يقول ابن تيمية (فالأخذ يتضمن خلقهم ، والإشهاد يتضمن هداه لهم إلى هذا الإقرار فإنه قال أشهدهم أي جعلهم شاهدين) [٤] وبهذا نرى ابن تيمية ينطلق في نظريته في المحبة مبتدئا بالمعرفة الإلهية ، ويجعلها أصلا للمحبة – تماما كما فعل الغزالى – وإن كان لا يرى أن هناك انقساما بين المحبة والمعرفة سوى أن المعرفة سابقة على المحبة ، فيقول (العلم قبل العمل ، والإدراك قبل الحركة ، والتصديق قبل الإسلام ، والمعرفة قبل المحبة ، وإن كانا يتلازمان) [٥] ومن المؤكد أن الإدراك والتصور ما لم يكونا صحيحين ، فإنهما لا محالة يفسدان المحبة – وأرى أن ابن تيمية متفق مع الغزالى في هذا كل الاتفاق ولكن من الناس من فسدت فطرهم فاحتاجوا إلى دواء ، فهم محتاجون إلى النظر والاستدلال لتذكريهم بالمعرفة الضرورية الفطرية ، وقد أخطأ كثير من أهل الكلام فقالوا : بأن المعرفة لا تقع إلا بنظر وكسب ، وحجتهم في ذلك (أن المعرفة لو وقعت ضرورة بدون كسب ونظر لارتفع التكليف) [٦] وهذا خطأ لأن التكليف يأتى عن طريق الرسل ، أما العلم بالصانع فهو فطرى والناس كلهم من مسلمين وكفار ولدوا في هذه الحياة على معرفة الله تعالى بالفطرة ، وكذلك إبليس وفرعون

---

(١) البخارى ومسلم والترمذى وأحمد ومالك (حاشية درء تعاوض العقل والنقل ٣/٧١ – تحقيق د/ محمد رشاد سالم) .

(٢) سورة العلق (١)

(٣) سورة الرحمن (١، ٢)

(٤) ابن تيمية – درء تعارض ج٨ / ٤٨٨

(٥) ابن تيمية – الرسائل والمسائل – الرد على ابن عربى ٥٤ – ٥٥

(٦) السابق صـــــــ ١٤

– لعنهما الله – وغيرهما كانوا في الباطن عارفين بربهم وإنما جحدوا ظلما وعدوانا كما قال تعالى " وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً " [1] فينبغى على المؤمن أن ينصاع إلى هذه المعرفة الفطرية (فإن أصل العلم الإلهي ومبدأه ، ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله) [2] وهكذا كانت طريقة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام في الدعوة – يدعون الناس إلى عبادة الله أولا بالقلب واللسان .

وقد لفت ابن تيمية الانتباه إلى مكانة الفطرة وأهميتها عندما رد على المحتجين بالاستدلال العقلى حيث يقول :

" وقولهم إن نفوس العقلاء تتشوق إلى الاستدلال ، يقول لهم المنازعون : لا نسلم أن جميع العقلاء وكذلك ، بل جمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى، وهم مفطورون على ذلك ولهذا إذا ذكر لأحدهم اسمه تعالى ، وجد نفسه ذاكرة له ، مقبلة عليه ، كما إذا ذكر له ما هو معروف عنده من المخلوقات) [3]

ويدلل ابن تيمية على أن معرفة الإنسان لربه فطرية في الإنسان نفسه لأن الإنسان لم يحدث نفسه ، وكذلك موقفه من الأمور المألوفة لديه والتي اعتاد رؤيتها في أغلب الأحوال كالبناء الذي يراه لابد له من بان ، والآثار التي يراها على ظهر الأرض لابد لهـــا من مؤثر وغير ذلك مما يشاهده ويألفه .

---

[1] سورة النمل (١٤)

[2] ابن تيمية – منهاج السنة النبوية ٣/١٠٠

[3] ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل صـــ٨ صـــ ٣٧ ، ٣٨ .

ولكن هل للفطرة من مجددات ؟ أو مؤكدات ؟

نعم فإن المتغيرات الكونية الغريبة كالرعد والبرق والزلازل ، فإنها تكون داعيا قويا لتأكيد المعرفة الفطرية بالله (ولهذا كانت فطرة الخلق مجبولة على أنهم متى شاهدوا شيئا من الحوادث المتجددة ذكروا الله وسبحوه) [1] فإذا علم الإنسان يقينا أنه لم يحدث نفسه ، كما أن أحدا من البشر لم يحدثه ، عرف أن له خالقا يتصف بالحياة والعلم والقدرة ، ذلك لأن هذه الصفا ت يمكنه معرفتها عن طريق الاستدلال بطريقة الأولى بمقارنتها بغيره من المخلوقات .

إذن من الضروري لكي يعرف الإنسان ربه أن يكون عالما بنفسه وهذا مهم

(فعلمه بنفسه المعينة المشخصة يقيده العلم بهذه المطالب وغيرها كما قال تعالى " وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ " [2]

والاستدلال بالآيات السمعية هنا يسميها ابن تيمية (علم القلوب) إشارة إلى الفطرة فيقول :(ولكن علم القلوب بمقتضى الآيات والعلامات لا يجب أن يقف على القياس) [3]

من هنا يأتي سؤال آخر وهو هل تمرض الفطرة ؟

نعم إن الفطرة قد يعتريها المرض كما يعتري الأبدان فترى الحق باطلاً لذا فإنه يشترط سلامتها لكي تصح المعرفة القائمة عليها حيث يقول

---

[1] موافقة صريح المعقول ٩٥/٣ على هامش منهاج السنة النبوية – طبعة بولاق سنة ١٣٢١ هـ

[2] الذاريات (٢١)

[3] السابق صـ٩٨

(والعلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها ، وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويمرضها فترى الحق باطلا ، كما في البدن إذا فسد أو مرض) [1]

ولكنه يصرح بأن الفطرة قد تنجلي عن أصلها ومعدنها ويصبح الإقرار الفطري بوجود الله تعالى أوضح ما يكون عند الفزع إليه في الشدائد

ولكن ما السبب في مرض الفطرة وفسادها ؟

إن السبب في ذلك راجع إلى اتباع الهوى والتقليد الأعمى للآباء بغير تفكر وتدبر كما جاءت في الحديث السابق (كل مولود يولد على الفطرة) [2] فإن الإنسان لما قد خلق على السلامة والصحة ، فهو لهذا يستحق العقوبة على ما غيره من خلق الله بتفريطه وعدوانه لاتباعه الظن ، وما تهوى الأنفس (وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التي تتضمن القوة على معرفة الحق وعلى محبته ، ولكن غيّر فطرته بما يقلده عن غيره) [3] .

وإن معرفة الإنسان ليست في الحقيقة مسبوقة بجهل بل نسيان فالمؤمن متذكر للحقيقة والكافر غافل عنها لأن الشياطين اجتالتهم عن فطرتهم فغفلوا ونسوها لذلك ينكرونها فالمعرفة هنا (ضد الإنكار أما

---

[1] ابن تيمية – جامع الرسائل ٢٤٣ – ٢٤٤ .

[2] درء تعارض العقل والنقل ٣٠٦/٣ ويقصد بالعلوم هنا : المعرفة الناجمة عن الفطرة بالضرورة .

[3] أورد هذا الحديث ابن تيمية في (منهاج السنة) ٢٣٤/٢ – ٢٣٥ ، جامع الرسائل الكبرى – المجموعة الأولى تحقيق د/ محمد رشاد سالم صـ١١ ، وقد أخرجه البخاري ١٩٧/٤-١٩٩ – في الجنائز – باب ما قيل في أولاد المشركين – ومسلم (٢٦٥٨) في القدر : باب معنى كل مولود يولد على الفطرة .

العلم فهو ضد الجهل)[1]وكان من الواجب على كل ذي عقل أن يدرك أن معرفته سبحانه يجب أن تكون (مستقرة في القلوب لا تحتاج إلي قياس أو استدلال) [2] والإيمان بوجوده سبحانه وتعالى مسألة بدهية والقرآن الكريم يمكن أن يؤخذ منه (الرد على من انحرفت فطرتهم فيرد عليهم بضروريات فكرية تثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق) [3] ومن المستحيل على الإنسان أن يخلق نفسه أو أن يحدث (أي شيء على الإطلاق في السموات أو في الأرض)[4]والإقرار بالفطرة لا يستوجب أن نخرج من بطون أمهاتنا عالمين بأمور الدين ، وإنما الفطرة هي الموجبة (لدين الإسلام ، لمعرفته ومحبته) [5] ومقتضى العدل الإلهي حرية الاختيار حتى تتضح الدرجات فعلى قدر المحبة تكون الطاعة قال تعالى " فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ " [6]

وإذا تحقق أن المعرفة عند ابن تيمية فطرية قلبية يظهر لنا من خلال ذلك نزوعه للصوفية أو ميوله إلى المنهج الصوفي (فإن العبد عندما يعرف ربه يذكره) [7] ولعل هذا هو المبرر عند الصوفية الذي يجعلهم (يلازمون الذكر لله فإنه يتفق مع الفطرة) [8] وقد صرح ابن تيمية في

---

[1] د / محمد كمال جعفر : التصوف طريقا وتجربة ومذهبا صـ١٨٢ – مكتبة دار المعرفة الجامعية سنة ١٩٨٠م .

[2] ابن تيمية – دقائق التفسير .جـ١ صـ١٨٥ .

[3] د/ عبد الحليم محمود التفكير الفلسفي في الإسلام صـ٦٤٠-٦٥

[4] د/ محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم صـ ٧٨ مكتبة المتنبى

[5] نقض المنطق صـ٣٤ وفتوح الغيب صـ٢٢

[6] سورة الكهف (٢٩)

[7] ابن تيمية : درى تعارض العقل والنقل ٣٨٣/٨

[8] نقض المنطق صـ٣٩

أكثر من موضوع من مؤلفاته بأن طريق الصوفية حق حيث يثمر الإيمان المجمل ولكنه مع ذلك يضع شرطاً أساسياً للإيمان المفصل وهو (اقتران ذلك بالعلم النبوى) [١] ونفهم من هذا أن العلم الفطرى المجمل بالله لابد أن يصحبه الدليل الذي جاء به الرسل ، وأولها وأعظمها القرآن الكريم ، وهذا هو(طريق الصحابة حيث يعبر لنا جندب بن عبد الله وغيره من الصحابة بقولهم : تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيمانا ، قال الله تعالى " وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً " [٢] فزيادة الإيمان ناتجة عن كثرة العبادة لله ، وذكره ودعائه ، فإن (من كان لله أعرف وله أعبد ، ودعاؤه له أكثر،وقلبه له أذكر كان علمه الضرورى بذلك أقوى وأكمل فالفطرة الخلقية مكملة بالفطرة المنزلة) [٣] ولكن معارف الفطرة الأولى أولية ، وذلك لأنها مجرد إقرار بالحق تبارك وتعالى وهي (من أرسخ المعارف ، وأثبت العلوم، وأصل الأصول) [٤]

ولكن إذا كان الإقرار بوجود الله عند ابن تيمية فطريا فماذا يعنى بالفطرة المنزلة ؟

في الحقيقة إن الإقرار بالفطرة الأولى يصبح غير قادر على تحمل القيام بالأمر والنهي الإلهين وليست فيه القوة التذكيرية الكافية ، لذا جاءت الفطرة المنزلة ، رحمة من الحق سبحانه وتعالى بنا ، مكملة لهذه الفطرة (وبها تتحقق المعرفـــة العميقة) [٥] وهي التي يتولد عنها الحب والخوف

---

[١] ابن تيمية – نقض المنطق صـــ٥١

[٢] سورة الأنفال (٢)

[٣] ابن تيمية : نقض المنطق ، صـــ ٣٩ .

[٤] الفتاوى الكبرى ج٢/٧٢ ط٢

[٥] / مصطفي حلمى / التصوف والإتجاه السلفي في العصر الحديث صـــ٩٧ دار الدعوة – الإسكندرية سنة ١٩٨٢ سنة ١٤٠٢ هـــ

والرجاء ويحصل هذا (شيئا بعد شيء كمال الفطرة ، إذا سلمت من المعارض) [1] وهذه هي الحالة التي يقدر فيها الإنسان، والتي بها يفضل على غيره ، من سائر المخلوقات ، وذلك بعد أن ينتقل من حال النقص إلى حال الكمال كما يقول ابن تيمية فإن (الاعتبار بكمال النهاية ، لا بنقص البداية) [2] وأيضا فإن انضمام نوعى الفطرة (الخلقية ، المنزلة) يحقق الإيمان النافع (وهذه هي الطريقة الإيمانية النبوية المحمدية) [3] لأنها تتضمن القسمين الفطرى والإيمانى (فالإنسان مع الإيمان بالله ورسوله ، إذا نظر واستدل كان نظرة في دليل وبرهان وهو ثبوت الربوبية والنبوة ، وإذا تجرد وتصفي كان معه من الإيمان ما يذوقه ذلك ويجده) [4] أما فيما يتعلق بالعلم بالله والإيمان به ، فإن أول الأصول التي يبدأ منها المريد والناظر هو الإيمان بالله ورسوله ، (فإن هذا الأصل أن لم يصحب الناظر والمريد والطالب في كل مقام خسر خسرانا مبينا ، وحاجته كحاجة البدن إلى الغذاء أو الحياة أو الروح) [5]

ثالثا : العقل

لقد كان ابن تيمية يرى أن هذا المصدر المعرفي ليس مستقلا بذاته بل يراه تابعا للمصدرين الأولين أعني – النقل ثم الفطرة ، فلابد للأدلة العقلية أن تكون نتائجها موافقة للشرع والفطرة السليمة وإن كانت الأدلة العقلية وسيلة هامة لإفهام الخصوم أو إقناعهم وتسليمهم بالمطلوب وهذه الأدلة تعتمد على ترتيب النتائج على مقدمات يسلم الخصم بها وهذه المقدمات إما أن

---

(1) ابن تيمية – درى تعارض العقل والنقل ٣٨٣/٨

(2) الفتاوى جـ١٠ /٣٠٤

(3) السابق صـ٧٣/٢

(4) السابق ٦٧/٣

(5) السابق ٦٧/٣

تكون واضحة لا مرّية فيها وإما أن تستند على براهين يجب الاتفاق عليها وهذا هو ما يسمى بالاستدلال .

لقد اجتهد ابن تيمية في استقصاء مفهوم العقل عند المسلمين على اختلاف أفكارهم وانتهي إلي أن العقل ليس جوهرا قائما بذاته بل هو عرض قائم بغيره وأنه لا يقوم إلا بمحل فيمتنع وجوده قبل وجود شيء من الأعيان وهذا هو سر رفضه لمفهوم العقل من الناحية الميتافيزيقية التي نادى بها أرسطو في حديثه عن العقل الفعال حيث وصف العقل بصفات تسمو به فوق صفات البشر والعالم الطبيعي فجعله في مرتبة الألوهية ، هذا إن لم يكن عقلا إلهيا صرفا فجعل منه (مبدأ لتحريك الأفلاك وأضاف إليه كل الصفات التي يضيفها إلي الألوهية.

فيقول " أشرف من الهيولاني موجود بالفعل عقلاً دائما سواء عقلناه نحن أو لم نعقله .. أنه صورة وأنه فاعل .. معقول أزلي "[1].

ولهذا يسخر ابن تيمية من هذا المفهوم (الأرسطي) فيقول " فقد كان أرسطو وأتباعه يسمون الرب عقلا وجوهرا وهو عندهم لا يعلم شيئا سوى نفسه ولا يريد شيئا ولا يفعل شيئا ويسمونه المبدأ والعلة الأولى لأن الفلك عندهم متحرك للتشبه به"[2] وذلك يخالف مفهوم القرآن الكريم الذي يجعل من العقل مصدرا يدل على الفعل ، وقد استطاع ابن تيمية إبطال القول بوجود جواهر عقلية لا تقبل القسمة وأبطل أيضا قول من يقول إن الله تعالى خلق العقل وحده قائما بنفسه (إذ يمتنع أن يكون أول المخلوقات عرض قائم

---

(١) ابن رشد – تلخيص كتاب النفس – تحقيق د / أحمد فؤاد الأهواني صـــ٨٥ .

(٢) ابن تيمية – رسالة في العقل والروح صـــ٢٥ .

بغيره) [1] ، والذي سار عليه ابن تيمية هو ما جاء بالكتاب والسنة المطهرة فعرف بذلك الطريق الصحيح للعلم والمعرفة فيقول (إن محمداً صلى الله وعليه وسلم بعث بجوامع الكلم ، فالكلم التي في القرآن الكريم جامعة محيطة كلية عامة لما كان منتشرا متفرقا في كلام غيره ، ثم إنه يسمي كل شيء بما يدل على صفته المناسبة للحكم المذكور المبين ، وما يبين وجه دلالته)[2] وقد زعم المتفلسفة والمتكلمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين أصول الدين وأدلته العقلية فاستطاع ابن تيمية أن يبرهن على انتشار الأدلة العقلية وكثرتها في القرآن والسنة وتنوعها ، ويسمى ابن تيمية ما جاء عن الرسل بـــ (أدلة السمع) أو (دلالة السمع) في مقابل (أدلة العقل) لأن الأولى تبلغنا عن طريق السماع والأخبار ، وتتناول الإرشاد والتنبيه ، والبيان للدلائل العقلية ، وأن الناس ، كما يستفيدون من كلام المصنفين والمعلمين الأدلة العقلية التي تبين لهم الحق ، فاستفادتهم ذلك من كلام الله أكمل وأفضل ، فتلك الأدلة عقلية ، باعتبار أن العقل يعلم صحتها إذا نبه عليها ، وهي شرعية باعتبار أن الشرع دل عليها ، وهدى إليها ، فعلى التقديرين تكون الأدلة حينئذ شرعية عقلية [3].

" رابعا : الحواس كوسيلة للمعرفة "

يشبه ابن تيمية الأعضاء بأنها حَجَبَةُ للقلب ، فالأذن مثلا تحمل الكلام المشتمل على العلم إلي القلب ، والعين تبصر ما تنظر إليه وإذا علم القلب ما نظر إليه فذلك مطلوبة ولكن خصائص العين تقصر عن القلب والأذن ، لأنه

---

[1] ابن تيمية – علم الحديث صـــ٢٤٦ تحقيق وتعليق / موسى محمد علي – دار الحرم للتراث / ط١ ١٩٨٤م – ١٤٠٤هـ .

[2] ابن تيمية – نقض المنطق صـــ ١١٠ .

[3]) ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٦ – ٣٧ .

بواسطتها يرى صاحبها الأشياء الحاضرة ، والأجسام فحسب ، ولهذا يمتاز القلب والأذن عن العين بأن القلب يعلم بهما ما غاب عنه من الأمور الروحانية والمعلومات المعنوية ، وينفرد القلب وحده بأنه يعقل الأشياء بنفسه ، ويمتاز بذلك عن الأذن التي يقتصر دورها على حمل الكلام والقول إلي القلب ، فإذا وصل إلي القلب أخذ منه ما فيه من العلم فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب (وإنما سائر الأعضاء حَجَبَهُ له توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه) [1] . من خلال ما تقدم ندرك أن طرق المعرفة عند ابن تيمية متعددة وهي التي يقف بها العبد على معرفة ما هو حسن وما هو قبيح ، كما أن هذه الطرق مكملة لبعضها البعض ، وتكاد لا تنفك عن بعضها البعض ، ولعل ذلك من سابق فضل الله ونعمه على العبد ، فإن الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا ، لذا فهو في أمس الحاجة إلي من يهديه ويرشده إلي الإيمان ويذكره بالفطرة الأولى ، قال تعالى " وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " [2]وقال تعالى " وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً " [3]ولقد اعتبر ابن تيمية الحواس مصدراً من مصادر المعرفة الدالة على وجود الله تعالى إذ يقول : (وأما الطريق الثاني ، وهو إدراك الحواس ، فلا ريب أنهم لا يقولون إنهم يدركونه – تعالى – بالحس الظاهر بل يقولون : إن الحس نوعان : ظاهر وباطن ، والإنسان يحس بباطنه الأمور الباطنة ، كالجوع والعطش ، والعطش والري ، والفرح والحزن ، واللذة والألم ، ونحو ذلك من أحوال النفس ، فهكذا يحسون ما في بطونهم من محبته سبحانه ، وتعظيمه والذل له ، والإفتقار

---

(١) ابن تيمية – الفتاوي ٩ / ٣١٠ ، ٣١١ بتصرف .

(٢) سورة النحل (٧٨)

(٣) سورة الإسراء (٣٦)

إليه، مما اضطروا إليه وفطروا عليه ويحسون أيضا ما يحصل في بواطنهم من المعرفة المتضمنة لمثله الأعلى في قلوبهم) [1].

وهكذا فإن معرفة الله تعالى مما يصدر عن الحس الباطن بالأحوال النفسية الناشئة عن مناجاة الله ومراقبته ومحبته والخوف منه والافتقار إليه .

ولقد كان جل اعتماد ابن تيمية في تقريره للمعرفة عن طريق الحواس على أمهات ما ينال به العلم وهي ثلاثة من الأعضاء (السمع – البصر – الفؤاد) وهنا يبرز ابن تيمية الأهمية التي نيطت بكل عضو منها .

أولاً : البصر :

يرى ابن تيمية أن فائدته بالنسبة للأعضاء الأخرى أقل ويعرفه بأنه (المشهود الباطن والظاهر) [2] وبذا فإن منفعته تقتصر على تحصيل المنفعة العاجلة الحاضرة وهو لذلك معين على تحصيل المنافع الأخرى .

ثانياً : السمع :

وفائدته أعظم من البصر لأنه أعم وأشمل فهو (وحي الله وتنزيله) [3] وبه يستمد العبد ما يعجز البصر عن إدراكه ، وهو مع البصر بريد إلي القلب وهذه الأعضاء الحسية الثلاثة تتفاوت أهميتها فيما بينها .

ولعل أهمها السمع والقلب . رغم أن هذه الثلاثة يسلم كل منها إلي الآخر يقول تعالى " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ

---

(1) ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل ٨ / ٤٠ .

(2) ابن تيمية – مسألة فيما إذا كان في العبد محبة صـ٤٤٧ .

(3) السابق ص ٤٤٧ .

آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا " [1] وعلى الإنسان إذا رغب في العلم والمعرفة ، فإن القلب هو الذي يوجهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها مستخدما في ذلك هاتين الوسيلتين – أقصد السمع والبصر – وبذا فإن الأعضاء الثلاثة تتحول كما قلت إلي أمهات ما يدرك به العلم الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوانات التي تشارك الإنسان في الشم والذوق ، واللمس (وهنا يدرك ما يحب وما يكره ، وما يتميز به بين من يحسن إليه ومن يسيء إليه إلي غير ذلك) [2].

ثالثا : القلب :

إذا كانت المعرفة عند ابن تيمية فطرية في المقام الأول فإنها في المحل الأول تتم عن طريق القلب ، لذا نراه يتقيد بما جاء في الحديث الشريف الذي يعرف القلب بأنه سيد الأعضاء كلها – قال صلى الله عليه وسلم (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب) [3] فيفهم هو القلب بناءا على ذلك بأنه (يعقل هذا المشهود ، وهذا المسموع ، فلابد وأن يعقل ما شهدنا وحسسنا ، فيعقل الشهادة والغيب بمعنى ضبط العلم بجريان ذلك على وجه كلى في النفس) [4] وتتضح أهمية القلب في مجال المعرفة عندما نجد أن ابن تيمية لا يستبعد أن تكون بعض القلوب مستعدة لمشاهدة الله تعالى ، فإن هذا أمر (ممكن عقلا

---

[1] سورة الحج (٤٦)

[2] الفتاوى جـ٩ / ٣١٠ .

[3] البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩ / ١٠٧) وكلاهما عن النعمان بن بشير .

[4] ابن تيمية – مسألة فيما إذا كان في العبد محبة ٤٤٨ .

وشرعا) [1] حكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بخلاف الرؤية الحسية الظاهرة في الدنيا فهذا أمر ممتنع شرعا ولكن كما قلنا إن الحواس بريد القلب " والقلوب مفطورة على أن يتجلى لها من الحقائق ما هي مستعدة لتجليها فيها ، فإذا تجلى فيها شيء أحست به إحساساً باطناً بواسطة تجليه فيها) [2] وبهذا يرى ابن تيمية أهمية القلب فإن المعرفة عن طريق الحواس الأخرى لا تصبح يقينية مدركة رغم أنها محسوسة – إلا إذا تجلت للقلب فإذا كانت القلوب مفرغة صافية تجلت هذه المعارف فيها أما إن كانت غير ذلك لم يحصل لها الإحساس القلبى . وبهذا فقط تصبح المعرفة القلبية هي الميزان الذي لابد أن تتعادل كفتاه ، فيكون في أحداهما علما ، وبالأخرى يعقل العبد ما حصله وعلمه ، والقلب يخزن ما علمه حتى يحتاج إليه فيطلب الانتفاع به لأنه ليس غافلا عنه ، لذا يؤتيه الله الحكمة " وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً " [3]وقال أبو الدرداء رضى الله عنه (من الناس من يؤت علماً ولا يؤتى حكمة ، وإن شداد بن أوس ممن أوتى علماً وحكمة) [4].

والذي يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم : إما (رجل رأي الحق بنفسه فقبله فتابعه ، ولم يحتج إلي من يدعوه إليه ، فذلك صاحب القلب ، أو رجل لم يعقله بنفسه فهو محتاج إلي من يعلمه ويبينه له

---

[1] عبد الرحمن النحلاوى – ابن تيمية صـ٧٧ ط١ – دار الفكر دمشق – ١٩٨٦ م

[2] ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل ج٨ /٤١ .

[3] سورة البقرة (٢٦٩)

[4] عويمر بن زيد ، من خاصة صحابة النبى صلى الله عليه وسلم وهو من كبار قراء المدينة ، دعا أبو الدراداء إلى المعانى الذوقية منذ وقت مبكر وتعلم على يديه أوائل الصوفية ، ت (٣١ هـ) .

ويعظـــه ويؤدبـــه ، فهـــذا أصـــغي فـــ " أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ " [1] أي : (حاضر القلب ليس بغائبه) [2].

وإذا كان القلب يستطيع أن يقبل العلم بنفسه ، فإن لهذا استعدادات وشروط يتوقف عليها ، وأولها الإرادة فإنه (إذا رغب الإنسان في العلم أصبح مطلوباً وبذا يمكن أن يأتي العلم فضلا من الله تعالى ، وفي هذه الحالة يصبح موهوبا) [3].

إذن لابد أن تمتزج لدى الإنسان القوتين . العلم والعمل إذ بهما تتولد القوة الحبية لكي تؤكد الرابطة المعرفية لذا يقول ابن تيمية : إن من (عرف الله وقلبه سليم أحبه ، وكلما ازداد له معرفة ، ازداد حبا ، وكلما ازداد حبه ازداد ذكره له ، ومعرفته بأسمائه وصفاته ، فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب) [4].

وبهذا فإن المحبة التامة كما يراها ابن تيمية هي توافق العلم مع العمل أو التصديق والمحبة ، وذلك هو الإيمان المحض ، فبالعلم يصح تصور المراد المحبوب ، وبالعمل تصدق الإرادة (أي أن الاعتقـــاد والإرادة يتعاونان) [5].

ولكن ما هي الوظيفة الأساسية للقلب ؟ في الحقيقة إن وظيفة القلب التي يصلح بها ويصلح بها سائر الجسد هي مداومة الذكر ، فإنه قد خلق لذكر الله تعالى والعلم ، ولذلك قال سليمان الخواص : (الذكر للقلب بمنزلة

---

[1] سورة ق (٣٧)

[2] الفتاوى جـ٩/٣٠٩

[3] السابق صـ٣١١ .

[4] السابق جـ٩ / ٣١٩ .

[5] هنرى لاووست ـ نظريات شيخ الإسلام ـ المقدمة ١/ ١١٢ ط ١ .

الغذاء للجسد فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا) [1] وإذا كان القلب مشغولا بذكر الله ، عاقلا للحق مفكرا في العلم فقد وضع في موضعه ، أما إذا لم يصرف إلي العلم ولم يع الحق فقد نسى ربه فلم يوضع في موضع بل هو (ضائع وسيضله الهوى عن معرفة الحق تعالى ، إما أن يشغله بفتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس ، أو يصده عن الحق منذ البداية ويصرفه إلي الباطل الذي يتمثل في الهموم والأفكار المرتبطة بعلائق الدنيا وشهوات النفس وفي الأهـواء المؤدية إلي الهلاك) [2].

والذي يرى بقوة لدى ابن تيمية – رحمه الله تعالى – أن القلب هو أزكى مصادر المعرفة عند العارفين بالله لأنه المختص بالعلم وبقبوله وإن أشرف أنواع العلم هو العلم بالله تعالى وذاته وصفاته يقول(القلب هو بيت الإيمان بالله تعالى ومحبته وهو العارف بالله) [3] والعلم ينزل نزولا إلي القلب فإن (القلب للعلم كالإناء للماء ، والوعاء للعسل ، يقول بعض السلف : القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلي الله تعالى أرقها وأصفاها ، وهذا مثل حسن ، فإن القلب إذا كان رقيقا لينا كان قبوله للعلم سهلا يسيرا ورسخ فيه العلم وأثر وثبت ، وإن كان قاسيا غليظا كان قبوله للعلم صعبا عسيرا) [4].

وليست كل القلوب صافية قابلة لنزول العلم وحلوله بها فلابد أن يكون القلب ذكيا صافيا سليما فإن القلب (الصافي الرقيق اللين هو وحده الذي يقبل

---

(1) ابن تيمية ، الفتاوى ٩ / ٣١٢ .

(2) الفتاوى ٩ / ٣١٣ .

(3) ابن تيمية – الفتاوى جـ٢ صـ ٢٦٥ ، شرح العقيدة الأصفهانية جـ٢٨ ، رسالة في الكلام على القصاص جـ٢ صـ٢٥٤ ..

(4) الفتاوى جـ١ صـ٢٧٩ ؛ جـ٩ صـ ٣١٤ ، ٣١٥ بتصرف .

العلم) [١] فإذا قبله أثمر ثمرا طيبا (وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم ، وكان كالدَّغل [٢] في الزرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت منعه من أن يزكو ويطيب) [٣].

ويجب أن يفهم كل ذي قلب أن معرفة الله تعالى هي أول الضروريات وهي أولى من غيرها وذلك (لأن القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات) [٤] ولكن من الواجب أن تبقى القلوب مشغولة بذكر الله تعالى ولا تترك فارغة فإنها إن تركت وحالتها – كما يرى ابن تيمية – فارغة من كل ذكر وخالية من كل فكر سوى ذكر الله تعالى والتفكر فيه وفي آلائه ونعمائه لأصبحت آهلة لتقبل العلم فيها – بل يمكنها مشاهدة الحق تعالى (فنفس مشاهدة القلوب لنفسه تبارك وتعالى أمر ممكن) وإن كان ذلك قد يقال (إنه مختص ببعض الخلق ، كما قال أبو ذر وابن عباس وغيرهما من السلف : إن نبينا صلى الله عليه وسلم رأي ربه بفؤاده) [٥].

هل رؤيا القلب واحدة وما هي كيفيتها ؟

من الممكن للقلب أن يرى صور الحقائق كما هي أو مؤله بتفسير أو غير ذلك والسبيل إلي ذلك هو وضع القلب في الموضع الذي خلق له وأن لا يفرغ تفريغا تاما فإنه إذا فرغ من الحق تعالى (فإنه ليس بمتروك مخلى ، فإنه لا يزال في أودية الأفكار وأقطار الأماني لا يكون على الحال التي تكون

---

[١] ابن تيمية – الإكليل في المتشابه والتأويل جـ٥ / مجموع الرسائل الكبرى جـ٢ القاهرة ، المطبعة العامرة ١٣٢٣هـ .

[٢] الدغل – بفتحتين : الفساد – مختار الصحاح – الرازي صـ٢٠٦ المطبعة الأميرية .

[٣] الفتاوى جـ٩ / ٣١٥

[٤] درء تعارض العقل والنقل جـ٨ صـ ٤٤٥ .

[٥] ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل جـ٨ / ٤١ .

عليها العين ، والأذن من الفراغ والتخلي) [1] وبذا يفترق القلب عما عليه العين والأذن فهما قد تبقيان خلوا من الأشياء ، أما القلب فإذا لم يوضع في الموضع الذي خلق له يكون بذلك موضعا لا موضوع له ، فيقبل بالتالي – نقيض الموضوع له – وهو الباطل ولذلك قال الله تعالى " فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ " [2]وقد كان هذا من النقاط التي رفضها ابن تيمية في تصوف الغزالي وقد كان الغزالي يرى ضرورة العزلة و (تصفية القلب للذكر عندئذ انكشف له في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها فعلم يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة) [3].

وهنا يتساءل ابن تيمية – معترضا – ولكن الإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر ، فمن أين يعلم أم ما يحصل فيه حق ؟ إن الذي قد علم بالسمع والعقل أنه إذا فرغ قلبه من كل شيء حلت فيه الشياطين ، وتنزلت عليه ، كما كانت تنزل على الكهان ، فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلي قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله ، فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان ولذلك التبس الأمر على كثير من السالكين ، فاشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية ، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكهان والسحرة وظنوا أن ذلك من كرامات أولياء الله .

كما أن هذه الطريقة لو كانت حقا ، فإنما تكون في حق من لم يأته رسول فأما من آتاه رسول ، وأمر بسلوك طريق ، فمن خالفه ضل ،

---

(1) ابن تيمية ، الفتاوى جـ٩ / ٣٠٩ .

(2) سورة يونس (٣٢)

(3) الغزالي – المنقذ من الضلال صـ٧٧ – تحقيق د / عبد الحليم محمود ط٤ ١٩٦٤ م مكتبة الأنجلو المصرية .

والرسول قد أمر أمته بعبادات شرعية ، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ما ينزل ، فهذه الطريقة لو قدر أنها طريق لبعض الأنبياء لكانت منسوخة بشرع محمد صلى الله عليه وسلم .

" إن التفريغ والتخلية التي جاء بها رسول الله أن يفرغ المرء قلبه مما لا يحبه الله ويملؤه بما يحبه الله ، فيفرغه من عبادة غير الله ، ويملأه بعبادة الله) [1] من ناحية أخرى فإن ابن تيمية في منهجه العاقل لأمور الدين والتفرقة بين الحق والخطأ من أي أحد نراه يوافق الغزالى ويتأثر به عند حديثه عن رؤيا القلب فإنه يمكن أن يرى الشيء متمثلا في القلب الذي هو كالمرآة والقلب تنعكس فيه هذه الصورة ويكون هذا يقظة ومناما " فقد يحصل لبعض الناس في اليقظة من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم في المنام ، فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم ، وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه وهذا كله يقع في الدنيا "[2] ويظهر هذا التأثر جليا بالنظر إلى تعبير الغزالى عن الرؤية في منقذه حيث يقول (وقد قرب الله تعالى ، ذلك على خلقه بأن أعطاهم نموذجا من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير) [3]

هل المعرفة الحاصلة في القلب دائمة ؟

إن المعرفة الحاصلة في القلب ليست ثابتة دائمة إنما هي لحظية ، إذ هي أحوال وأعراض تدوم وتحصل بدوام أسبابها ، ودوام أسبابها وهذه المعرفة قد يعبر عنها بالنور أو الكشف أو الإلهام أو الفراسة أو الذوق أو

---

(١) ابن تيمية – الرد على المنطقيين صـ٨٤-٨٩ نشرة عبد الصمد شرف الدين الكتبى / الهند / بمباي سنة ١٩٤٩ م .

(٢) ابن تيمية – الحموية الكبرى صـــــ٢٩ .

(٣) المنقذ من الضلال صـــــ٣٨٢ تحقيق – د/عبد الحليم محمود .

العلم اللدنى ، وغير ذلك من الأسماء التي تدل على ما يلقى في القلب من المعارف والحقائق) [1] ويلاحظ هنا أيضا تأثر ابن تيمية بالغزالي في تعبيره عن المعارف التي تحصل في القلب بغير حيلة ولا اكتساب . [2]

خامسا : أسماء الله تعالى وصفاته

يعتمد ابن تيمية في إثباته لأسماء الله تعالى وصفاته على موردين هما النقل والعقل فالعقل عنده يثبت صحة النقل وهو ما خالف عليه الأشعرى فقد كان الأشعرى يعول في معرفة أسماء الله وصفاته على النقل دون العقل لأنها في رأيه مسألة توفيقية وهي من باب المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى مستندا إلى قوله تعالى : " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ "[3] يقول ابن تيمية (فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ، ونفي أن يعلم أحد معناه وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمى الذي لا يفهم ، فمن ادعى أن أسماء الله وصفاته من الأمور التي لا يعلم معناها ، فهذا هو الغلو في الظاهر ، وهو من جنس غلو القرامطة في الباطن) [4].

وإذا كان العلم بالأسماء والصفات هو سبيل الحب والمعرفة ، والعنصر الأساسي لهذه المرحلة المعرفية ، فإن تلك المعرفة لا تتحقق إلا

---

(1) ابن تيمية – الفتاوى ج٧ صـــــ ٥٦٦

(2) الغزالي – إحياء علوم الدين جـ٣ صـــــ١٨ .

(3) سورة آل عمران (٧)

(4) ابن تيمية – الإكليل في المتشابه والتأويل جـ٢ / ١٩ – ٢١ .

بالوقت على ما جاء به القرآن الكريم وما ورد في السنة المطهرة من أسماء الله وصفاته ويرى ابن تيمية أن أسماء الله وصفاته يدل كل اسم منها على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر وليس في أسمائه المتعددة تكرار ، فإذا قيل : (الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ – فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذي في الاسم الآخر) [1].

وابن تيمية يعتبر موقف الأشاعرة من الصفات الإلهية أصوب وأقرب إلي رأي السلف من موقف غيرهم من المعتزلة الذين نفوا الصفات خوفا من القول بتعدد القدماء ، ذلك لأن الأشاعرة في رأيه من الصفاتية (البلاكيفية ، ومن ثم فهم أقرب إلي مذهب السلف والأئمة الذين كانوا يثبتون الصفات كما جاءت بلا كيف ، فقد نفوا علم الكيفية ، ولم ينفوا حقيقة الصفة فلو كان مذهب السلف نفي الصفات كنفي الاستواء على العرش مثلاً ، لما احتاجوا إلي القول عن هذه الصفات إنها بلا كيف) [2].

والسلف عموما كانوا يثبتون الصفات الخبرية ، لذا فإنه من غير المعقول والسائغ أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه وفي هذا يقول ابن تيمية (اعلم رحمك الله غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها ، إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف) [3].

---

(1) ابن تيمية – معارج الوصول صـ٨ .

(2) الحموية الكبرى صـ٢٥ .

(3) السابق صـ٢٦ .

*.والسؤال هل تتفاضل أسماء الله تعالى وصفاته ؟

يؤكد ابن تيمية على أن أسماء الله مع كونها لا يدل الواحد منها على الآخر ولا يستغني به عنه – فإنها أيضا تتفاضل فيما بينها ، وهذا خلافا لقول الأشاعرة حيث يرون أنها لا تتفاضل ، وليس هذا القول هو المشهور بين السلف (بل كان السلف يرون تفاضل صفات الله تعالى) [١].

بل زيادة على ذلك فإن الحجج العقلية تؤكد أن كلام الله تعالى بعضه أفضل من بعض فإن (الكلام له نسبتان : نسبة إلي المتكلم المخبر ، ونسبة إلي المخبر عنه المتكلم فيه) [٢] ومعلوم أن القرآن والتوراة والإنجيل جميعا كلام الله ، (ومعلوم أن القرآن أفضل الكتب الثلاثة) [٣].

وهذا هو مذهبه التي ارتضاه عن جمهور السلف ، وهو أيضا مذهب بعض الأشاعرة ، الذين خالفوا في هذا إمامهم – الأشعري – (وأقروا بتفضيل بعض القرآن على بعض مثل الشيخ الاسفراييني وأبي حامد الغزالي) [٤].

ومن المعلوم أن هناك مباينة بين المخلوقات بعضها البعض ، إذن فإن مباينة الله تعالى لخلقة أعظم مما هو موجود بين مخلوق ومخلوق قال تعالى " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ "[٥] وإذا كانت هناك اختلافات بين المخلوقات حتى المؤمنين لدرجة أننا لا نعلمها إلا في الجنة ، فإن الحق أولى بذلك ، لذا فإن في الأسماء والصفات من التأويل ما لا يعلمه إلا الله تعالى يقول ابن تيمية

---

[١] جواب أهل الإيمان صـ٤٨ ، صـ٥٧ .

[٢] السابق صـ٣٥ .

[٣] السابق صـ ٤ ، ٥ (مطبعة التقدم ط١ ١٣٢٢هـ) .

[٤] ابن تيمية – جواب أهل الإيمان صـ ٢٨ – ٣٥ .

[٥] سورة الشورى (١١) .

(لولا هذه الأسماء والصفات تدل على معنى مشترك يقتضي المواطأة ، والموافقة ، والمشابهة ، ما به يفهم ، وتثبت هذه المعاني لله ، لم نكن قد عرفنا عن الله شيئا ، ولا صار في قلوبنا إيمان به ، ولا علم ولا معرفة ولا محبة ، ولا إرادة لعبادته ، ودعائه وسؤاله ومحبته ، وتعظيمه ، فإن جميع هذه الأمور لا تكون إلا مع العلم ، ولا يمكن العلم إلا بإثبات تلك المعاني التي فيها من الموافقة والمواطأة ، ما به يحصل لنا ما حصل من العلم لما غاب عن شهودنا) [1].

يفهم من هذا أن ابن تيمية يخرج الأسماء من المتشابه باعتبار المعنى ولكنه يبقيها باعتبار الكيف .

" الإلهام القلبي أو الكشف كمصدر للمعرفة "

والكشف من القضايا التي خاض فيها معظم رجالات التصوف وخاصة المتأخرين منهم حيث إن الإلهام " هو إشراق المعرفة وانبثاقها دفعة واحدة ، بدون مقدمات معينة أو تذكر لمحفوظ أو خبرة واضحة "[2] وللإلهام علاقة قوية تربطه بالفطرة – فإذا كان المرء مستعدا بفطرته إلي معرفة الحق ومحبته وأن هذه المعرفة تولد مع كل مولود من البشر فإن الإلهام يحقق هذا الاستعداد وينقله بغته بدون سابق إعداد أو تكلف من القوة والفعل فيصبح بذلك حالة من الشغاف الروحي يصل إليها الإنسان الصالح المؤمن حقا فينكشف له بعض أمور الغيب في مقام تكريم الله تعالى له ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (هل ترون قبلتي ها هنا ؟ فوالله ما يخفي على خشوعكم ولا

---

[1] ابن تيمية – شرح حديث النزول صـ٢٢ – ٢٣ ط٥ – ١٩٧٧– المكتب الإسلامي .

[2] عبد الرحمن النحلاوي – ابن تيمية صـ٨١ .

ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري) [1]يقول ابن حجر في شرحه لهذا الحديث وتقرير دلالته : (والصواب المختار أنه محمول على ظاهرة ، وأن هذا الإبصار إدراك حقيقي خاص بـــه ﷺ ، انخرقت له فيه العادة) [2].

وقال الشاطبي في الموافقات : (فهذا حكم بني على الكشف .. فلكل من كان من أهل الكشف والإطلاع أن يحكم بمقتضى اضطلاعه وكشفه ، ألا ترى إلي قضية أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ابنته عائشة رضي الله عنها فيما نحلها إياه ثم مرض قبل أن تقبضه ، قال فيه : وإنما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله ، قالت : فقلت : يا أبت ، والله لو كان كذا وكذا لتركته ، وإنما هي أسماء فمن الأخرى ؟ قال : ذو بطن بنت خارجة أراها جارية) [3].

من هنا يظهر أن الكشف هو حالة من النور الإلهي تنزل إلي القلوب الصافية فيحل فيها من غيب الله ما شاء ، وهو من الكرامات التي يقر بها المسلمون أهل السنة والجماعة وهي دليل ولاية الله عز وجل بشرط صلاح الإنسان والتزامه بالكتاب والسنة . ومع ذلك فهي حالة غير مستمرة ولكنها قد تعرض وقد تتكرر .

تفسير ابن تيمية للإلهام القلبي ورأيه فيه

يرى ابن تيمية أن المعرفة الإلهامية ممكنة فيما يتعلق بذات الله تعالى بل إن المعرفة الكشفية هي من أهم وأرقى مناهج المعرفة لديه فإن (العلم

---

[1] البخاري في الصلاة (٤١٨) ومسلم في الصلاة (٤٢٤ / ١٠٩) كلاهمـــا عن أبي هريرة .

[2] فتح الباري ١ / ٦١٣ لابن حجر – الطبعة السلفية .

[3] الموافقات للشاطبي ٤ / ٢٤٤ والحديث أخرجـــه مالـــك في الموطـــأ في كتاب الأقضية ٢ / ٧٥٢ (٤٠) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

يمكن أن يأتي من الله تعالى ويصبح المرء في هذه الحالة موهوبا) [1] وكما قلت فإنه ليس كل أحد أهل للكشف بل فقط من كان صالحا وذلك لأنه فتح من الله تعالى على قلوب عباده الصالحين والمتقين وهو تأييد من الله لهم والكشف باعتباره من مصادر المعرفة عنده فهو بذلك يعين على معرفة الله تعالى وذلك لأنه ليس (من الممتنع وجود العلم بثبوت الصانع إلهاما) [2] وهو أيضا (علم ضروري لا يمكن أن يدفعوه عن أنفسهم ، أو مستند إلي أدلة خفية لا تقبل النقض ، فلا يمكن أن يكون باطلا) [3] وهذا هو السبب الذي يجمع بين الإلهام أو الكشف وبين الفطرة حيث إن (العلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة) [4] ويستند ابن تيمية في تفسيره للكشف القلبي إلي الحديث الذي رواه الترمذي عن النواس بن سمعان والذي يبين أن في قلب كل مؤمن واعظ يأمره وينهاه بالترغيب والترهيب ، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو علي رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط فالصراط المستقيم هو الإسلام، والستور حدود لله والأبواب المفتحة محارم لله، فإذا أراد العبد أن يفتح بابا من تلك الأبواب ناداه المنادى – أو كما قال – : يا عبد الله ، لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل

---

(1) ابن تيمية – نقض المنطق صـ٣٩ .

(2) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل المنيرية ، رسالة في علم الباطن والظاهر صـ٢٣٧-٢٣٨ .

(3) ابن تيمية ــ درء تعارض العقل والنقل جـ٨ / ٤٦ .

(4) السابق جـ٨ / ٣٠٦ .

مؤمن) [1] لقد بين هذا الحديث الشريف أنه في قلب كل مؤمن واعظا ، والواعظ هو الأمر والنهي بالترغيب والترهيب ، وهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر الله ونهيه في القرآن ، ولهذا يقوى أحدهما الآخر وقد يؤتى العبد أحدهما ولا يؤتى الآخر ، وذلك كما جاء في الصحيحين عن إبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال : (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر) [2]

وقد يقوى أحدهما بالآخر ، كما قال تعالى : " نُورٌ عَلَى نُورٍ"[3] قال بعض السلف في الآية : هو المؤمن ينطق بالحكمة ، وإن لم يسمع فيها بأثر ، فإذا سمع بالأثر كان نورا على نور ، نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن كما أن الميزان العقلى يطابق الكتاب المنزل (فإن الله تعالى أنزل الكتاب والميزان ليقوم النـــاس بالقسط) [4]

والملاحظ عند بيان هذا المصدر المعرفي عند ابن تيمية أنه قد تأثر كثيرا بالصوفية فاتفق معهم على أن الكشف هو اليقين وكان تأثره خاصة في

---

[1] الترمذي في الأمثال (٢٨٥٩) وقال (حديث غريب) وأحمد ٤ / ١٨٢ ، ١٨٣ ، والحاكم في المستدرك ١ / ٧٣ وقال (صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه)

[2] البخارى في الأطعمة (٥٤٢٧) وفي فضائل القرآن (٥٠٥٩) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤٤/٧٩٨)

[3] سورة النور (٣٥)

[4] ابن تيمية – السلوك ١٠ /٤٧٥ بتصرف وشرح كلمات من فتوح الغيب للجيلانى صـــــ٢٣ .

هذا الموضوع بالجنيد والجيلانى والإمام الغزالى . فقد كان الغزالى يرى في اليقين أنه يكون (في الدنيا للخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى رتب الوصول) [١]

وهذا هو ما يراه ابن تيمية كما قلت – فإنه يقول على لسان العارفين (إن اليقين واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها) [٢]

ومع هذا فلابد للمكاشف أن يعرض ما يرد عليه على ما جاء به الكتاب والسنة ذلك لأن القلب ليس معصوما عن الخطأ ، وأما ما جاء به المصطفي صلى الله عليه وسلم فهو حق في ذاته بخلاف غيره ذلك لأن (كل من حصل له من المخاطبات والمشاهدات والانكشافات ما يحصل للأولياء فإنه يعلم أن الذي للأنبياء فوق الذي له من ذلك – كعمر بن الخطاب ،.. بل كان عمر بما جعل له من المكاشفة والمخاطبة يعلم أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أكمل منه معرفة ويقينا، وكان خضوع عمر له في مواقف عديدة ... ولا ريب أن الرجل كلما عظمت ولايته وعظم نصيبه من انكشاف الحقائق كان تعظيمه للنبوة أعظم) [٣] ولابد أن يكون الإلهام في القلب شاملا الاعتقاد والعلم والظن ، كما يشمل أيضا العمل والحب والإرادة والطلب ، فإذا ما وقع في القلب ما هو راجح وأصوب ومال القلب إلى أحدهما من

---

[١] الغزالى : روضة الطالبين ، وعمدة السالكين ، ضمن رسائل الغزالى ج٢ صـــــ٢٧ ، من القصور العوالي .

[٢] ابن تيمية – توحيد الربوبية صـــ٣٩ (ضمن مجموع الفتاوى) مطبعة الرياض سنة ١٣٨١ هـــــ

[٣] شرح العقيدة الاصفهانية صـــ١٠٦ ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان صـــ ٧٠ ،جامع الرسائل جـــ١ – رسالة في الرد على ابن عربى ، في دعوى إيمان فرعون صـــــ٢٠٦ .

الآخر ، فهذا هو الإلهام أو الكشف (وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكنه التعبير عنه وهذا معنى ما فسّر به معنى الاستحسان) [١]

هل يصح أن يكون الإلهام طريقاً شرعياً للأحكام ؟

يرى الإمام ابن تيمية أن الذين (أنكروا كون الإلهام طريقا شرعيا على الإطلاق أخطؤوا ، كما أخطأ الذين جعلوه طريقا شرعيا على الإطلاق) [٢]

وذلك لأن الإلهام من جهة لا يمكن أن يعتبر وحده دليلا على الأحكام الشرعية ولكنه بمثابة (الترجيح لطالب الحق عن تكافؤ الأدلة الشرعية الظاهرة) [٣] وشرطه الأساسى المتابعة لما جاء بالكتاب والسنة فإن ذلك يحصل لهم (ببركة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم) [٤] وهو ما أكده السهروردى من قبل فإن (من استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة) [٥]

ولابد للبصيرة من ضابط من الشرع والعقل فإن لم يوافقهما لم يؤخذ به وهذا نص قوله (وليس الكلام فيما علم فساده من الإلهام : لمخالفة دليل الحس والعقل ، والشرع ، فإن هذا باطل ، بل الكلام فيما يوافق هذه الأدلة لا يخالفها) [٦] وهذه في الحقيقة قاعدة عامة ليست مقصورة على الإلهام بل هي قاعدة يشترطها ابن تيمية بكل مصادر المعرفة ما عدا الكتاب والسنة سواء كان ذلك في الإلهيات أم في الأحكام .

---

(١) ابن تيمية – شرح كلمات من فتوح الغيب صـ٤٤٦ ، صـ٢٣ من فتوح الغيب

(٢) ابن تيمية ، من فتوح الغيب صـ٢٠

(٣) ابن تيمية ، السلوك ١٠ – ٤٧٧.

(٤) ابن تيمية – للفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان صـ٦٥ .

(٥) السهروردى – عوارف المعارف صـ٤٥٧

(٦) ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل ٤٦/٨ .

وبالجملة فكل ذوق أو وجد أو مكاشفة لا تطابق الاعتقاد في نظر ابن تيمية فأحدهما أو كلاهما باطل (والأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات فإن علم القلب وحاله متلازمان) [1]

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحا وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين من حسن قصده وعمارته بالتقوى (فإلهام مثل هذا دليل في حقه قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة ، وفي الحديث عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) [2]

ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[3] وقد ثبت في الصحيح قول الله تعالى : (ولا يزال عبدى يقترب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى) [4]

والخلاصة في هذا المصدر المعرفي أن (كل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد ، فإذا لم يكن ذلك بسلطان ، أي بحجة من الله ، وهو ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كان صاحبه متبعا لهواه بغير هدى، وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والأشخاص

---

[1] الإمام الألوسى – جلاء العينين في محاكمة الأحمدين صـــ١١٧ .

[2] الترمذى في تفسير القرآن (٣١٢٧) وقال : (غريب إنما نعرفه من هذا الوجه) والسيوطى في الجامع الصغير (١٥١) ، وتفسير الطبرى ١٤ / صـــ ٣١ ، ٣٢ .

[3] سورة الحجر (٧٥)

[4] البخارى في الرقاق (٦٥٠٢) وأحمد ٦ / ٢٥٦ عن عائشة بنحوه .

الغيبية ، ولا يعتبـــر ذلك بالكتاب والسنة فإنما يتبع ظناً لا يغنى من الحق شيئا) [١]

معرفة المحبين بين الخوف والرجاء

إن السائر إلى المحبوب – وهو الله سبحانه وتعالى – بالخوف والرجاء يكون قد أتى بالعبودية التامة وذلك (لما في اقترانها من ذلة وخشوع يجذبان القلب إلى الله حتى يصير إليه منيبا خائفا راجيا) [٢]

وإن رجاء المحبين وخوفهم مبنى على أصل المحبة الذي هو المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته وآياته وآلائه (والتي بها يشتد الرجاء للحق حتى يسوقه إلى محبة الله تعالى التي هي الأصل) [٣]

حقيقة إن ابن تيمية يرجع كل شيء إلى أصله ما دام هذا الأصل غاية توصل إلى غاية أعلى . فالحب هو الغاية (أو الوسيلة) الموصلة إلى الغاية الكبرى – وهو الله عز وجل لذا فإنه يرى أن محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده (بل هي كل عمل من أعمال الإيمان والدين) [٤]

ومن الطبيعى والمعقول جدا إذا كانت للمحبة هذه المنزلة فإنها تكون أساس (كل حركة في الوجود) [٥] وهي المبنية على المحبة والإرادة .

---

(١) ابن تيمية – الرسائل الكبرى جـ١ صـــ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) ابن تيمية – الفتاوى – ١٠ / ٢١٥ .

(٣) السابق صـــ٦٤ .

(٤) ابن تيمية – قاعدة في المحبة صـــ٢١٠

(٥) جامع الرسائل صـــ٤٠١

وكما قلت من قبل ذلك إن المعرفة هي أصل لشجرة عظيمة وارفة المحبة ثمرتها فلا يمكن بحال أن ينفكا أو ينفصما فالمرء لا يحب (إلا من يعرفه ولا يستحق المحبة في الحقيقة إلا الله تعالى ، حتى إن حُبَ الرسول صلى الله عليه وسلم تابع لحب الله تعالى ، ومحبة العبد لربه فطرية – كما بينا من قبل – وهي مشروطة بالشعور فلزم أن يكون الشعور فطريا ، والمحبة له أيضا فطرية ، لأنها لو لم تكن فطرية ، لكانت النفس قابلة لها ولضدها على السواء وهذا ممتنع) [١]

والقلب الذي ذاق حلاوة المحبة والعبودية بمعرفة ربه العظيم ، يخاف أبدا زوال محبوبه ومطلوبه ، وعدم حصول مرغوبه لذا نراه يعيش دوما بين الحب والخوف والرجاء قال الله تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً " [٢].

هل الحب وسيلة إلي المطلوب ؟

ما من محب إلا له رغبة وطلب في محبوبه فإذا اشتد شوقه إليه دعاه فهو أصل لهذا قال تعالى " وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً "[٣] يقول الإمام ، هذه الآية مشتملة (على جميع الإيمان والإحسان وهي الحب والخوف والرجاء) [٤] لذا عقبها بقوله" إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ المُحْسِنِينَ " [٥]وذلك لأن الدعاء مبني

---

[١] ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل جـ٨ صـ٤٥١ .

[٢] سورة الإسراء (٥٧)

[٣] سورة الأعراف (٥٦)

[٤] ابن تيمية ـ الفتاوي الكبري ، ج٥/ ٢٠ .

[٥] سورة الأعراف (٥٦)

على الطمع في رحمته ، فالعبد في دعائه إذا لم يشتد طمعه فيه لن تتحرك نفسه إلي مطلوبه ، وإنما أصل الحركات بالحب والإرادة .

وحقيقة الدعاء عند ابن تيمية ذكر لله تعالى وثناء عليه ، وطلب منه فالذكر عنده أخص من الدعاء قال صلى الله عليه وسلم (أفضل الدعاء الحمد لله) [١] والدعاء والرجاء ذاتيان في المحبة فإن (الحمد متضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب ، والحامد طالب للمحبوب) [٢] فإذا دام الطلب اتصل الذكر وتبين أن أشد ما يعلق القلوب بالله تعالى (هو كثرة الذكر له) [٣] يقول الشعراني : (من دامت أذكاره صفت أسراره ، ومن صفة أسراره كان في حضرة الحق قراره) [٤] وما وصل العبد إلي التمكين لدى محبوبه – وهو الله تعالى – إلا بشدة السير إليه متخذا من المحبة مركبا شراعها المعرفة ، (ولا يزال قلب العبد في طريقه إلي الله تعالى حتى يشرق فيه النور والرحمة والبركة) [٥].

مما تقدم نستنتج أن :

أولا : أن المعرفة بالله تعالى – كما يرى ابن تيمية – فطرية وأن الناس جميعا مسلمين وكفار ولدوا على معرفة الله تعالى بالفطرة وهذا من سبق فضله عليهم .

ثانيا : إن وسائل المعرفة متعددة ولكن محلها الأول هو القلب وهو سيد الأعضاء وبصلاحه يصلح الجسد وبفساده يفسد الجسد وهو الذي يعقل

---

[١] ابن تيمية / الفتاوى الكبرى جـ١٥ / ص١٦ .

[٢] السابق جـ١٥ /ص ٢٧

[٣] ابن تيمية – توحيد الألوهية – ج١– من الفتاوى الكبرى صـ ٩٦

[٤] الشعراني : الأنوار القدسية ج١ ، صـ١٤٤ .

[٥] ابن تيمية –توحيد الألوهية صـ٩٦ .

المرء به الأشياء فإذا رغب الإنسان في المعرفة والعلم فإن القلب هو الذي يوجهه نحوها مستخدما وسيلتين عظيمتين من وسائل الحس وهي السمع والبصر فـــإن القلب بهـــذا هو أداة المعرفة بالله تعالى وسائر الأعضاء كخدم له .

ثالثا : كان ابن تيمية يرى أن الدين وهو أول طرائق المعرفة بالله تعالى وهو أول (ما يبنى من أصول المعرفة قائم بالقلب ويكمل بفروعه) [١] وأن أعمال القلوب عنده هي المقامات والأحوال لأنها طريق السير إلي المحبوب ولا يكاد في هذا يخالف الصوفية في هذا المعراج الروحي .

رابعا : يرى ابن تيمية أن المعرفة الفطرية الأولى مجملة وهي تحتاج إلي تفصيل وأن هذا التفصيل مصدره القرآن والسنة حيث يمده القرآن بما يرغب في معرفته ، أو بالأحرى فإنه يعمق هذه المعرفة فينميها ويفصلها ويبين للسالك في طريق الله تعالى غايته وسبيل الوصول إليه .

ثم يأتي دور الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك لأن الإرادة لابد فيها من تعيين المراد وهو الله تعالى والطريق إليه (وهو ما أمرت به الرسل) [٢] فإذا ما التقى سبيلي العلم بالله مع الإخلاص له بالعمل بأمره فقد اجتمع منهجي النظر والعمل في أتم صورة ، فالعلم النافع إنما هو من علم الله (والعمل الصالح هو العمل بأمر الله ، وهذا تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر ، وهذه طاعته فيما أمر) [٣].

خامسا : أن منهج الرسل عليهم السلام هو أسلم المناهج وبه يتحقق النموذج الصحيح (في المؤمن الموحد حيث يعبد ربه بالحب والرجاء

---

(١) ابن تيمية – السلوك / ٣٥٥ .

(٢) السابق / ٦٨٦ .

(٣) ابن تيمية – معارج الوصول ١ / ١٧ .

والخوف) [1] ولكن لأن الإنسان خطاء – كثير الزلل والنسيان لما فطر عليه، فهو محتاج دوما إلي فعل الطاعات والتوبة دون كلل أو يأس و" لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " [2] ولا ييأس إن لم يصل إلي ما يحبه الله ويرضاه من معرفته وتوحيده ، (بل عليه أن يرجو ذلك ويطمع فيه ، فإن من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه ، وإذا اجتهد واستعان بالله تعالى ،ولازم الاستغفار والاجتهاد فلابد أن يؤتيه الله من فضله ما لم يخطر ببال) [3]

سادسا : أن الإلهام مصدر من مصادر المعرفة الهامة ولكنه لا يمكن أن يكون طريقا للأحكام الشرعية مطلقا بل لابد أن يستند إلي الاتباع لما جاء به الكتاب والسنة فلا يحصل العلم إلا (ببركة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم) [4].

سابعا : لقد ظهرت نزعة ابن تيمية الصوفية ، وذلك بميله إلي منهج الصوفية وذلك عن طريق البناء والهدم ، ولا أقصد الهدم المطلق بل الهدم لما يخالف ما جاء به الدين واستقر لدى أهل السنة من السلف الصالح حيث صرّح في أكثر من موضع من مؤلفاته بأن طريق الصوفية حق حين يثمر الإيمان المجمل ، ولكنه لا ينفك عن الإيمان المفصل الذي يعتبر شرطا أساسيا له وهو اقتران ذلك بالعلم النبوي ، أي الأدلة التي جاءت بها الرسل وأفضلها القرآن الكريم الذي هيمن على كل الكتب المنزلة .

---

(1) الفتاوى الكبرى – السلوك / ٦٨٧ .

(2) سورة يوسف (٨٧)

(3) الفتاوى الكبرى – التصوف ١١ / ٣٩٠ .

(4) ابن تيمية –الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان صـ٦٥ .

ثامنا : يستطيع المرء أن يحقق السعادة بالوصول إلي أفضل ما في الدنيا وذلك عن طريق هذه المعرفة التي بين تحقيقها ابن تيمية في منهجه ، ولا يتم ذلك إلا بالعبادات المشروعة الخالية من البدعة وذلك باتباع الطريقة الإيمانية المحمدية ، وذلك لأن الإسلام يقوم على أصلين هما(أن يعبد الله وحده ، وأن يعبد بما شرع ولا يعبد بالبدع) [1].

عندئذ وبعد ما يذوق المؤمن معرفة الله تعالى في الدنيا ، فإنه يتطلع إلي أسمى الغايات الأخروية في الجنة ، فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيتوج ذلك كله بلطف الجمال وعظمة الجلال وقدوسية الكمال فتنكشف الحجب والأستار برؤية الله العزيز الغفار وليس ذلك على الحقيقة إلا في الجنة دار السلام – قال تعالى " وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ " [2]

---

[1] ابن تيمية – الرسائل الكبرى جـ١ / ٤٧٤ .

[2] سورة ق (٣١: ٣٥)